أصناف الدلالات على المعاني

إبراهيم عبدالسلام صافار

جامعة مصراتة - ليبيا

مقدمة:

دأب علماء اللغة واللسان قديماً وحديثاً على النظر في قضية الدلالة تحت أسماء عديدة منها علم المفردات أو علم المعنى، أو علم المعنى اللغوي، أو معنى الكلمات[1]، ورغم هذا التنوع لكنها لم تخرج من دائرة الدلالة اللغوية إلا في مرحلتها الأخيرة من منتصف القرن المنصرم التي تعاملت مع اللغة بوصفها نظاما من الإشارات أو العلامات، وبالتالي تأخذ اللغة شكلاً من أشكال الأنظمة كأنظمة المرور والاتصال وغيرها، ويقع الخلاف بين وجهات النظر حول اعتبار اللسانيات جزءاً من السيميولوجيا (علم العلامات والإشارات)، حيث أكد (دي سوسير) بهذا على خصوصية الكلام بوصفه إشارة لسانية مستقلة عن غيرها ضمن النظام الإشاري العام، ورأي (رولان بارت) على العكس من ذلك أن السيميولوجيا جزء من اللسانيات فأدخل الكتابة التي عزلها (دي سوسير) ضمن النظام اللساني لتصير بهذا إشارة لسانية تعبر عن الأفكار، وقد اعتبر (بارت) كل الإشارات إشارات لسانية تملك القدرة على التعبير[2]، كما يعتبر علم الألسنية الحديث علم الدلالة بأنه علم الدلالات اللسانية، فـ"دلالة الوحدة اللسانية هو مدلولها، ومعناها هو القيمة التي يكتسبها المدلول المجرّد في سياق واحد، ووضع واحد، ولسان واحد، وموضوع واحد[3]". وعليه لم تخرج من دائرة اللغة.

---

[1] ينظر: د. نور الهدى لوشن/ علم الدلالة/ منشورات جامعة بنغازي ليبيا/ ط. الأولى/ 1995م. ص33.

[2] ينظر: منذر عياشي/ الكتابة الثانية وفاتحة المتعة/ المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء المغرب = بيروت لبنان/ ط. الأولى/ 1998م/ ص110.

[3] بول فابر = كريستيان بايلون/ مدخل إلى الألسنية/ ترجمة: طلال وهبة/ المركز الثقافي العربي/ لبنان .. المغرب/ ط. الأولى/ 1992/ ص186.

وقد كان لابد من مطالعة بعض الكتب الحديثة، والمعاصرة التي تناولت مفهوم الدلالة عند علماء العربية القدماء، حتى يتم التعرف على الموضوع وفق دراسات حديثة ومعاصرة اهتمت بهذا الجانب من التفكير اللغوي العربي في القديم، "قضية الدال والمدلول والعلاقة بينهما (الدلالة) من القضايا التي شغلت حيزاً كبيراً من جهود علماء الإسلام والعربية في وقت مبكر[4]"، وبلورت جملة من وجهات النظر القديمة بناء على رؤى معاصرة، وانتخبت مجموعة من النصوص التراثية، انصبَّ جلها في قضية اللفظ والمعنى، "لقد حظيت مشكلة اللفظ والمعنى بمواضيع عديدة في الدراسات الحديثة التي تناولت تاريخ النقد العربي القديم[5]"، وتتفق فيما بينها على قصر مفهوم الدلالة عند العرب من كونها الناتج الطبيعي من اتصاف اللفظ بالمعنى، أو هي محصلة للدال، وهو الكلمة أو اللفظ، والمدلول معناه الخفي، والدلالة هي الناتج من اتحاد الدال اللغوي بمدلوله؛ إذ يقول إبراهيم أنيس: "أداة الدلالة هي اللفظ أو الكلمة[6]"، كما أنه يعتبر الدراسات العربية الدلالية القديمة جاءت متأثرة بالثقافة اليونانية، ولم تخرج من دائرة آرائها. وأغلب الدراسات تعتبر قضية الدلالة قضية لغوية أو لسانية بحتة، وتشير إلى أن الاهتمام كان منصباً على قضية اللفظ والمعنى على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي والنصي، التي يتجاذبها علماء الأصول والنحو والبلاغة والكلام، وأيضا تهتم بجانب سبق العرب على الغرب في مجال البحث الدلالي، إذ "اهتم علماؤنا العرب قبل الغربيين بالدلالة لأن لغتهم تمتاز بالثراء الواسع[7]".

بدأت تظهر للوجود دراسات معاصرة تناولت موضوع الدلالة عند القدماء متعدِّية جانبها اللساني في حصر دلالة الكلمة على معناها؛ فقد عرض (د. علي بوملجم) في كتابه (المناحي

[4] أحمد الكراعين/ علم الدلالة/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر/ بيروت لبنان/ ط. الأولى/ 1993م/ ص81.

[5] فايز الداية/ علم الدلالة العربي/ دار الفكر. دمشق سوريا/ ط. الأولى/ ص30.

[6] دلالة الألفاظ/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ط. الرابعة/ 1980م/ ص40.

[7] عبد الغفار حامد هلال/ علم اللغة بين القديم والحديث/ ط. الثانية 1989./ص235

الفلسفية عند الجاحظ) موضوع الدلالة في سياق حديثه عن البيان عند الجاحظ، وخصَّص الفصل الثاني من بحثه تحت عنوان عناصر البيان وعيوبه، وجعل المسألة الأولى بعنوان عناصر البيان، وقسمها إلى قسمين الأول المعنى، والثاني الدلالة، وقسم الدلالة إلى خمسة أقسام، وهي اللفظ والخط والإشارة والعقد والنصبة واللفظ، وهذا التقسيم باعتبارها أحد عنصرين أساسيين من عناصر البيان، هما الدلالة والمعنى[8]، وعرف الدلالة عند الجاحظ "بأنها الأداة التي يستعملها المرء للتعبير عن معانيه مهما كان جنسها ونوعها، وقد جعلها الجاحظ خمسة أصناف هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال أو النصبة، وهي لا تزيد ولا تنقص بنظره، وتختلف عن بعضها البعض؛ إذ لكل منها ميزة خاصة بها، ولكنها جميعا ذات غاية واحدة هي الكشف عن المعاني بالجملة، ثم عن حقائقها في التفسير وعن عناصرها وطبقاتها[9]"، وتجدر الإشارة إلى أن ما عرضه حول المفهوم كان مستفادا من كتاب (البيان والتبيين) الذي اعتمد عليه بشكل مباشر مع استشهادات من (كتاب الحيوان) على سبيل الاستئناس، في حين تحدث الجاحظ عن تلك الأصناف الدلالية، أو البيانية في مناسبتين، أو في موضعين مختلفين في (كتاب الحيوان)[10]، الموضع الأول وضعه المحقِّق تحت عنوان (وسائل البيان), والموضع الثاني وضعه تحت عنوان (البيان ضروري للاجتماع)[11]، وبينهما أضاف أربعة عناوين أخرى عملت على جعل المتن مجموعة من النصوص المقطوعة عن سياقها المجاجي, باعتبار أن المجاج هو السمة أو الطابع العام للتأليف في القرن الثالث الهجري.

[8] ينظر: المناحي الفلسفية عند الجاحظ/ دار ومكتبة الهلال/ بيروت لبنان/ ط. الأولى/ 1994م/ ص375.

[9] المرجع السابق/ ص377.

[10] ينظر: عمرو بن بحر الجاحظ/ كتاب الحيوان/ تحقيق: عبد السلام محمد هارون/ مكتبة الخانجي مصر/ ط. الثانية/ 1965م / ج1. ص33.

[11] ينظر المصدر السابق/ ص44.

وما تجدر الإشارة إليه أن حركة التحقيق قد نشطت في المجتمع العربي والإسلامي خلال القرن الماضي، وصار القارئ يرى للكتاب الواحد أكثر من نسخة محققة؛ تارة تكون لنفس المحقق الأول، وأخرى تكون لمحققين مختلفين، وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أن هناك قصوراً واعتلالاً اعترى النسخة الأولى؛ مما أدى إلى ظهور نسخة أخرى، أو أن الكتاب المحقَّق اكتُشِف له نسخ مخطوطة جديدة لم تكن موجودة في التحقيق الأول، وكل هذا يساعد على ازدهار حركة التحقيق بتلافي بعض النقص، والتحريف، والأخطاء التي قد تطال بعض المخطوطات لحظة إخراجها إلى الكتاب المطبوع. كما أن التعدد في الإخراج الشكلي للكتاب يؤثر في المفاهيم التي يعرضها الكتاب بحجم الفارق بين اعتبار النص المحقَّق رسالة، أو كتاباً ملحقاً بكتاب آخر، أو كتاباً مستقلاً، أو كتاباً جامعاً لفصول وأجزاء, ويُطرح سؤال عن مهمة المحقِّق، وهل هي إخراج الكتاب في صورة أقرب ما تكون إلى الصورة التي أرادها مؤلف الكتاب؟ أم أنها قراءة في المخطوط؟ وبالتالي يخرج النص المحقَّق بوصفه نتيجة أسفرت عنها القراءة؟ وعليه تتغير النسخ المحقَّقة من قارئ إلى آخر, كما في هذا الموضوع قيد الدراسة بوصفه شاهداً على فساد عمل المحقِّق, وسوء فهم القارئ. وعلى هذا فإن أغلب الأفكار المطروحة حول دراسة علم الدلالة ومجاله وبخاصة في القديم؛ كانت مقتصرة على دلالة الكلمات على المعاني، فيما عُرف بقضية اللفظ والمعنى، وبحثوا في كيفية نشأتها وتكونها، وما ينثال على ذهن السامع من المعاني إبان سماع الكلمة، كما يهتم بالعلاقات الدلالية والعناصر التي تقوم بينها.

العالم علامات وعلاقات:

جاء في مقدمة الكتاب: "وأقول إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء متفق ومختلف ومتضاد وكلها في جملة القول جماد ونام[12]" بداية نشير إلى اعتبار الفعل (أقول) وأثره الدلالي على نسبة هذه الآراء إلى الجاحظ، وهو ما نعبر عنه تحت مصطلح (صيغ الآداء).

[12] عمرو بن بحر الجاحظ/ البارع في الأدب والجامع في حكم العرب المعروف بكتاب الحيوان/دار المعارف للطباعة والنشر/سوسة تونس/1993م/ج1. ص42.

بهذه البداية يقسم الجاحظ العالم بأعداده اللامتناهية من الأجسام، والأشكال بحسب علاقات بعضها ببعض، وبحسب ما يصدر عنها، أو تأثرها بما يصدر عن غيرها من الأجسام إلى ثلاث علاقات، فهي إما متفقة، أو مختلفة، أو متضادة، وهي نظرة تجمع بين الفيزياء والفلسفة، ثم حوّله عن طريق التقسيم اللغوي إلى مسميين، هما جماد ونام في مزج عميق بالتجربة التي يمتلكها عن العالم، والرؤية الفاحصة للكون مع محاولة التوفيق بين هذه التجربة الفردية، وبين القيم المستمدة من الواقع المعيش؛ وذلك بإنتاجها في قالب لساني يحمل الرؤية المبتكرة عن العالم في بعض مظاهره، وأشكاله باعتبار أن ما نراه هو جزء منه، وهو بمثابة الشاهد على الغائب عن إدراكنا مع التزامه بقواعد لسانه، واشتقاقاته وارتباطه به، ولعلها أقدم رؤية لسانية عربية للعالم والواقع.

وبهذه النظرة الشمولية للكون، والتوحيدية يحيله الجاحظ إلى خالق واحد، هو الله سبحانه وتعالى، ويعرض نظام العالم باعتباره يخضع لحكمة الله، التي لا يمكننا الوصول إليها إلا بالتدبُّر والنظر في مخلوقاته، وبما أنعم الله علينا من نعمة العقل والإدراك؛ إذ يقول: "ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة[13]"، وللوصول إلى معنى علمي لمدلول كلمة (حكمة) يتعين الرجوع إلى معاجم اللغة؛ لبناء اشتغال علمي منظم؛ إذ جاءت بمعان عديدة منها: العلم، والعلة، وفهم المعاني، وعلم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية[14]، وهي معان متقاربة بعض الشيء، وتناسب ما ذكره الجاحظ في مواضع متفرقة، منها ما جاء في بداية الجزء السابع من الكتاب حين قال: "إنما اعتمادنا في هذا الكتاب على أخبار ما في أجناس الحيوان من الحجج المتظاهرة وعلى الأدلة المترادفة وعلى التنبيه على ما خلقها الله تعالى من البرهانات التي لا تعرف حقائقها إلا من الفكرة وغشاها من العلامات التي لا تنال

[13] البارع/ مصدر سابق ج1. ص45.

[14] ينظر: علي بن محمد الجرجاني/التعريفات/مصدر سابق/ص124. كما ينظر: مجمع اللغة العربية/المعجم الوسيط/ط. الثالثة/ج1. ص197. مادة (حكم).

منافعها إلا بالعبرة وكيف فرق فيها من الحكمة العجيبة[15]"؛ إذ جعل هدفه تقصِّي الحكمة الموزَّعة والمودعة في كل ما تقع عليه أبصارنا، وما يتنامى إلى باقي حواسنا، ودعا إلى الوقوف والنظر في هذه العجائب، وبالتالي إلى سؤال الذات عن مصدرها، ومصيرها، وهذا بنظره بداية التدبر العقلي في قدرة الخالق عز وجل.

ونلجُ طريق الحكمة بقوله: "ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين، شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل، وليس كل دليل مستدلاً[16]"، يتضح من خلال هذا النص منطلقات، أو مفاهيم الجاحظ اللسانية حيث يحيل العالم بما فيه من أشكال نامية وغير نامية، متوافقة ومختلفة، ومتضادة إلى حكمة باعتبارها نظرا في حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود، ثم يقسمها إلى قسمين:

القسم الأول: حكمة عاقلة لما فيها، ولما في غيرها من الحكمة ومعبرة عنها.

القسم الثاني: حكمة غير عاقلة لما فيها من الحكمة، ولا يمكنها التعبير عنها.

وخلص إلى استواء العاقل، وغير العاقل في الدلالة على أنهما حكمة، بمعنى أن الدلالة توصل إلى حكمة، وهذه الحكمة هي الغاية والمغزى من هذه الدلالة، كما أن للحكمة عاقبة يتوصل إليها الإنسان من خلال تدبّره، وتفكّره في هذا النظام، وقسما الحكمة مختلفان من جهة الاستدلال، وذلك بكون العاقل يستدل على نفسه وعلى غيره، أما غير العاقل فإنه لا يستدل على ما فيه، ولا يستدل على ما في غيره من دلالة.

---

[15] البارع/ مصدر سابق/ ج7. ص7

[16] المصدر السابق/ ج1. ص45. 46

وبذلك فقد حوّل الجاحظ بأسلوبه الشائق العالم بما فيه من أجسام إلى دالات متسلسلة وفق نظام دلالي، يخبر من استخبره، وشاهد على أن كل شيء في الكون خلق للإنسان ومن أجله، وأن العالم في الإنسان، وليس الإنسان في العالم، وأن ما هو خارج إدراكه يسعى لإدراكه، وتفَهُّمه بما يدل عليه، ومن هذا التحويل الدلالي نبدأ في تفهُّم معنى الحكمة، وعلاقتها بمفهوم الدلالة عند الجاحظ.

عموم مفهوم الدلالة وأقسامها:

بداية لابد من الإشارة إلى أن الجاحظ قد استخدم كلمة (الدلالة) كمفردة تسيطر على مدلولها وفق ما اصطلح عليه المستعملون للغة العربية آنذاك، وقبل نضوج علوم كثيرة في اللغة، والفلسفة وغيرهما من العلوم، يُضاف إلى ذلك عدم دقة الكلمة كمصطلح علمي في العصر الحديث، "إن علم الدلالة دراسة لمعنى الكلمات، ولكن بعض الملاحظات والنظريات، وبعض وجهات النظر الحديثة، عادت مجددا تطرح هذه القضية القديمة، ولا يزال علم الدلالة يعاني لأن موضوعه لم يحدد تماما، ومصطلحاته لم توضح بدقة، مثله في ذلك كمثل بقية العلوم، القديم منها جداً أو الحديث جدا، ولهذا السبب يجد المختص نفسه كالرجل العادي تائها أمام الاستعمالات التي يصادفها كل يوم لهذا المصطلح[17]"، ومما جاء في معنى الدلالة في الكتب القديمة، أنها كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول[18]، وبذلك فهي كلمة تطلق على مفهوم بأبعاد ثلاثية، وهي دال، ومدلول، والعلاقة بينهما.

[17] بيير جيرو/ علم الدلالة/ ترجمة: منذر عياشي/ دار طلاس دمشق سوريا/ 1992م/ ص15.

[18] ينظر: علي بن محمد الجرجاني/ التعريفات/ مصدر سابق/ ص139.

هذا الكون الذي هو منا، وما يحيط بنا، نظر فيه الجاحظ باعتباره مجموعة من الدلالات التي توصلنا بعد التدبُّر، والنظر بما أتيح لنا من أدوات البحث والنظر إلى اشتماله على حكمة غائرة وبعيدة بمعنى أن هذه الدلالات، أو الدلالة بمفهومها الواسع هي التي تقع عليها حواسنا من نظر، وسمع، ولمس، وغيرها من المستقبلات الخمس، وأن الإنسان بما أعطاه، ومنحه الله من قدرات تُمكنه من القدرة على الفعل والتعبير، وهو الكائن الوحيد المخوّل بالتصرف في هذا الكون، وبكون الجاحظ إسلامي الفكر، والثقافة، والتوجه يدعو الإنسان إلى الوقوف، والاعتبار أمام هذه الدلالات المحيطة به حتى يلامس حكمة الله في خلقه، ويتذكر قدرته عليه، وعلى هذا يمكن اعتبار أن تكون الدلالة هي المظهر الخارجي، والشكل المادي الذي يسعى الإنسان لإدراكه، ويحاول ملامسة شيء من الحكمة الإلهية البعيدة الغور، والصعبة المنال؛ لأن الإنسان قاصر عن إدراكها. وهذا الإنسان في هذا الوسط الدلالي له أوجه، وطرق دلالية عرضها الجاحظ، وعدَّدها بكونها فعلاً دلالياً كاللفظ، والخط، والعقد، والإشارة قبل أن تكون أفعالاً إنسانية إرادية يستخدمها الإنسان للدلالة بها عن شيء ما في نفسه، وهي بهذه الصفة كأدوات ليست من خلق الإنسان مثلها مثل بيان الدليل الذي لا يستدل، كالجبل، والشجر، وغيرها من الأجسام الساكنة الساكتة؛ لكنها ناطقة من جهة الدلالة، وتشارك الإنسان الحي من هذه الجهة، وبذلك فرق بين الدلالة والبيان.

وقد ذكر الجاحظ هذه الأصناف الدلالية، وهي في حالة سكونها، ووجودها في أنفسها بغية توضيح الحكمة، وأقسامها بكونها قسمةً إلهية، ومنحاً ربانية، وأن الأشياء الموجودة لها وجود ونصبة، وهذا الوجود أو المثول يحمل في طياته دليلا على ما فيه من صحة الشهادة، وهو الذي جعل العاقل وغير العاقل يستويان من جهة الدلالة، ويختلفان من كون العاقل دليلاً يستدل، وغير العاقل دليلاً لا يستدل، وبذلك تنقسم الدلالة إلى قسمين دلالة طبيعية، ودلالة صناعية.

أ. الدلالة الطبيعية.

تشترك فيها كل الموجودات بقسميها الجامد والنامي، فموضوع الجسم ونصبته يحمل في طياته دلالة، تتحول بها الأجسام الخرس إلى ناطقة مثلها مثل الإنسان الحي، على أن الذي فيها من التدبير، والحكمة مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه، كما خبَّر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن وحسن النظرة عن حسن الحال[19]، ولشيء من التوضيح يعتبر الجاحظ أن الهزال وكسوف اللون (دلالة) توصل إلى معنى، أو مفهوم وهو (سوء الحال)، كما عرض محاورة بين الإنسان والأرض: "سل الأرض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا[20]" الأجسام والأشكال مدركات بصرية جعلها الجاحظ أحد أقسام الحكمة، وما أودع صدور صنوف الحيوانات، وسخر لها حناجرها، وهي مدركات سمعية، وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذه الدلالات البصرية، والسمعية وغيرها مما يدرك بالحواس الأخرى بإزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار[21].

ب. الدلالة الصناعية.

هي ذلك السبب الذي جعله الله للإنسان المستدل لكي يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما توصل إليه الاستدلال من جراء التفكير، والنظر إلى ما جعله الله حوله من مخلوقات بما تحمله من دلالات وحكم؛ تجعل المعتبرين يشهدون له بالوحدانية، ويدينون له بالعبودية[22]، وقد

[19] ينظر: البارع/ مصدر سابق/ج1. ص46.
[20] المصدر السابق/ ج1. ص46.
[21] ينظر: المصدر السابق/ ج1. ص48.
[22] ينظر: المصدر السابق/ ج1. ص52.

كان نظر الجاحظ في الدلالة واسعاً جداً، ليشمل الكون في منظوره ومتخيَّله، وجاءت اللغة أو دلالة الكلمة على مدلولها كفعل إرادي إنساني وسط دالات ودلالات إلهية، تلعب فيها الدلالة الإنسانية دور الوسيط بين مجموع هائل من الدلالات الموجودة أمام ناظريه.

وبذلك تكون الكلمة الدالة وسيطاً في حقل أوسع وأعم هو الدلالة؛ فالأجسام والأشكال الحية والساكتة معبرة، وهي لا ناطقة بالحرف ولا مشيرة بيد، وإنما بوجودها، ونصبتها في حد ذاته؛ إذ يشكل الإنسان مع محيطه نسيجا متشابكا من العلاقات، وهذه العلاقات مبنية على نظام دلالي واسع تتجلى لنا من خلال دوال تجعلنا نتفاعل معها؛ فهذا حيوان مفترس ينبغي الحذر منه، وهذه السحب قد تكون حبلى بالمطر، وهذه السيارة قد تكون مسرعة، وذاك الطفل يبكي علينا مساعدته، وهكذا نستشعر معنى الوجود والحياة؛ لكننا وكما يقول الجاحظ لسنا وحدنا الأحياء الذين يمارسون الحياة الطبيعية من تنفس، وأكل، وشرب، حتى الحيوان بأجناسه المختلفة يمارس هذه الرغائب؛ لكنه لا يستشعر معنى الوجود الكوني، ولا يعقل غير رغائبه الأولية؛ أما الإنسان الفصيح الحساس، كما يصفه الجاحظ؛ فإنه يبدأ بما يقع عليه بصره، ويتنامى إلى سمعه في إدراكه الحيواني الأول، وعليه أن يعتبره شيئاً ما يعبر عن شيء آخر، وبهذه الطبيعة الثنائية التي تنطلق من الأشكال لفهم الإنسان والمحيط الإنساني، لعله يستطيع تحسس خارطة الوجود من خلال تجاوز التفكير السطحي واليومي؛ ليتوصل إلى مستوى من التجريد، وأن الأشياء قد فرَّقها الله تعالى في عيون الناس، وميَّزها في طبائع العباد؛ فجعل بعضها بهم أقرب شبهاً، وبعضها أنسياً، وبعضها وحشياً، وأن النار والثلج وإن اختلفا من جهة البرودة والسخونة؛ فإنهما لم يختلفا من جهة البرهان والدلالة[23].

[23] ينظر: المصدر السابق ج1. ص125.

أقسام البيان وآلاته:

تحدث الجاحظ عن البيان قبل نضوج علم البلاغة وهيمنة مصطلحاتها، وذلك بتوضيح أقسام البيان من خلال نقولات، ونصوص طويلة مؤكداً على المنفعة الحاصلة للأمم من استعمال الأنظمة المرئية؛ مما يُنبي عن عمق المنظور الجاحظي، وشمولية رصده للظواهر التعبيرية.

وقد تعرَّض الجاحظ لمشكلة المصطلح، أو التسمية عندما ذكر جملة (وسموا ذلك بياناً) مرتين؛ ليوضح تشارك وقوع الاسم على معنيين، حيث يقول: "فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال، وسموا ذلك بياناً واجْتَمَع للإنسان أنْ كان دليلاً مستدِلاً، ثم جُعِلَ للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوهِ استدلاله، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال، وسمَّوا ذلك بياناً[24]"، وقبل الشروع في مناقشة الموضوع تجدر الإشارة إلى أن (المحقق والشارح أ.عبد السلام هارون) قد حذف جملة (وسموا ذلك بياناً) الأولى الواردة في النص المنقول السابق، واعتبرها جملة إضافية، ولا معنى لها بكونها مكرَّرة[25]، وتبعه في ذلك (أ.محمد باسل) ودون إشارة في الهامش إلى حذف الجملة، الأمر الذي جعله تصرّف في النص المحقَّق دون أمانة علمية[26] في حين أن الجملة مثبتة في بقية النسخ التي تمتلكها الدراسة. ومن خلال تكرار الجملة نلمس أن الجاحظ يعطي مفاهيم ناضجة تشترك مع غيرها، وتشتبك تحت مسمى، أو علامة واحدة موضحاً وقوع الاسم على معنيين.

ثم عرض أقسام البيان: "وجعل البيان على أربعة أقسام لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدِل من نفسه (...) فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه وداعية إليه ومهيمنة عليه فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في البيان

[24] البارع/ مصدر السابق/ ج1. ص46.

[25] ينظر: عمرو بن بحر الجاحظ/كتاب الحيوان/تحقيق: عبد السلام محمد هارون/مكتبة الخانجي مصر/ط. الثانية/1965م/ج1. ص33. الهامش رقم 2.

[26] ينظر: عمرو بن بحر الجاحظ/ كتاب الحيوان/ تحقيق: محمد باسل عيون السود/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان/ط. الأولى 1998م/ج1. ص28.

الإنسان الحي الناطق، فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللغة وشاهد في العقل[27]" مشيراً إلى أن الجماد من زاوية قبوله الفعل الاستدلالي، قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق، وأن من جعل أقسام البيان خمسة، قد ذهب مذهباً له شاهد في العقل، وجواز في اللغة، ومن خلال طريقة الطرح يتأكد بأن الأقسام الأربعة الأولى هي محل اتفاق على أنها أقسام البيان؛ أما القسم الأخير وهو موضوع الجسم؛ فمحل جدل وحوار، كما يقرر بأن بيان هذا القسم يتأتى له من خلال خاصية التمكين التي سيأتي الحديث عنها.

كما أن الجاحظ أردف (كتاب الحيوان) موضوع الدراسة بكتاب (البيان والتبيين) حيث وردت كلمة (البيان) جزءا من عنوان الكتاب، وتجاورها كلمة (التبيين) بعلاقة العطف المفيدة للتشريك في دلالات العنوان الواقع على الكتاب المعنون به بإضافة معنى التفعيل، وهو زيادة في اشتغال الفعل أو الجذر اللغوي (بين)، وفي مدلول البيان يقول: "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه[28]"، ويعرفه من زاوية الجانب المدرك من الدلالة، كما يقول: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى[29]"، واستخدام تركيب (اسم جامع) يعني أن ما يقع تحت مدلوله معان ودلالات كثيرة، ثم أخذ يضيف في تحديد مدلوله إلى أن جعله "بأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى؛ فذلك هو البيان في ذلك الموضع[30]"، وهنا يعرفه بأدواته أو آلاته, باعتبار أن (كتاب الحيوان) يدرس الظاهرة البيانية في الكون بكامله على اعتبار أنه خلق إلهي في أصله، وفي كتاب (البيان والتبيين) يدرس الظاهرة البيانية باعتبارها فعلاً إنسانياً، ومما يؤكد ذلك جملة (في ذلك الموضع)،

---

[27] البارع/ مصدر سابق/ ج1. ص46. 47.

[28] عمرو بن بحر الجاحظ (ت:255هـ)/البيان والتبيين/تحقيق عبد السلام هارون/مكتبة الخانجي مصر/ط. الخامسة/السنة 1985م/ج1 ص75.

[29] المصدر السابق/ ج1 ص76.

[30] المصدر السابق/ ج1. ص76.

وعلى ذلك يمكن اعتبار هذا التعريف خاصاً بالحالة التواصلية الإنسانية بين المتكلم والمستمع، لأن الغاية ومدار الأمر بينهما، هو الفهم والإفهام؛ وإلا ما كان للتلاقي والتواصل معنى.

ثم أطلق على أقسام البيان في (كتاب الحيوان) اسم أصناف الدلالات على المعاني من لفظ، وغير لفظ في كتاب (البيان والتبيين)، وإن كان ظاهر الأمر يفيد عدم ثبوت التسميات والمصطلحات التي يستخدمها الجاحظ، فهذه الأقسام (اللفظ/ الخط/ الإشارة/ العقد/ النصبة) واحدة وثابتة في الكتابين؛ لكنها وقعت تحت أسماء مختلفة، ويمكن اعتبار الاختلاف في دلالات الاصطلاح ما هو إلا اختلاف في جهة التسمية، أو الاصطلاح نتيجة تبدل زاوية النظر، والتحليل لاختلاف مقاصد التأليف في الكتابين؛ فهي أصناف الدلالات على المعاني من زاوية بعدها السكوني والوجودي الثابت، وبعيداً عن الاعتبار التواصلي، وهي أيضا آلات البيان بناء على الاعتبار التواصلي بين المرسِل والمتلقي.

وقد تقدم توضيح تشارك وقوع اسم (البيان) على معنيين عندما ذكر جملة (وسموا ذلك بياناً) مرتين، وفي اشتراك المعاني يقول: "وقد يشبه الاسم الاسمَ في صورة تقطيع الصوت، وفي الخط في القرطاس، وإن اختلفت أماكنه ودلائله؛ فإذا كان كذلك؛ فإنما يعرف فضله بالمتكلمين به وبالحالات والمقالات وبالذين عنوا بالكلام[31]"، وفي هذا ما يدل على وعي الجاحظ باشتراك الأسماء في الدلالات على المعاني، وأن الذي يفرق بين المعنيين هو طرائق الاستعمال، وجهات المتكلمين، كما يقرر أيضاً التزامه بما تواضع عليه أهل هذه اللغة المستعملون لها "إنما ننتهي إلى حيث انتهوا[32]" وأطلق عليهم حكماء اللغة، وهم الناس الذين يختون أسماء جديدة للمعاني الجديدة،

[31] البارع/ مصدر سابق/ ج1. ص178.

[32] المصدر السابق/ ج1. ص42.

وعن منهج الاتباع في اللغة يقول: "في هذا كله نتبع الأسماء الفارقة المعروفة البائنات بأنفسها المتميزات عند سامعيها من أهل هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان، وإنما يفرد ما أفردوا ويجمع ما جمعوا[33]". يتضح من خلال الاستشهادات المتقدمة أمور من بينها إحساس الجاحظ بتعدد المعاني للكلمة الواحدة، وأن عملية التفريق بين المعاني تتم بالأسماء البائنة والمعروفة عند السامعين، أو المتلقين لأهل هذه اللغة، باعتبار أنها فعل جماعي بين المستعملين، وأيضاً التزامه بما تواضع عليه أهل هذه اللغة (الحكماء)، وهي درجة أو مرتبة تجيز لمجموعة من الحكماء أن يصطلحوا أو يتواضعوا، وعلى ما يبدو أن الجاحظ لا يضع نفسه في هذه المنزلة، وعلى ذلك أخذ يعرض المعاني المتعددة للاسم الواحد (البيان)، ونخلص مما تقدم إلى رصد دلالتين رئيسيتين لمصطلح البيان عند الجاحظ:

المعنى الأول للبيان: كل المدركَات الناتجة عن العلم الضروري، وتشترك فيها كل الموجودات في حالة إدراكها الأول، وإن كانت غير مدركة.

المعنى الثاني: السبب، أو الوسيلة التي تمكّن العاقل من وجوه استدلاله على البيان بالمعنى الأول، وما يترتب عليه من نتائج دلالية، وبذلك نقف على أن الجاحظ لم يكن ولوعا باشتقاق المصطلحات العلمية بقدر ما يعنيه عرض وجهات نظر مجتمعه الثقافي، وتوضيح المعاني المشتركة ومناقشتها.

وبعد توضيح مفهوم البيان، وما به من دلالات متعددة نعرض آلات البيان عند الجاحظ باعتبارها أدواتً بيانية تمكّن الإنسان من ممارسة فعله الاستدلالي وهي الآتي:

النظام الصوتي (اللفظ):

التعبير بالصوت المقطَّع والمرسَل في الهواء يعتبره الجاحظ من أول آلات البيان، وأكثرها استعمالاً لكثرة الحاجة إليه؛ وذلك لأن "حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم في سائر

[33] المصدر السابق/ ج1. ص43.

الأماكن، وكانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة واكدة وراهنة ثابتة[34]" حاجة الناس عند التلاقي إلى بيان اللسان (العضو) وصفها الجاحظ بالحاجة الدائمة والواكدة، ليؤكد دور الحاجة في جعل الإنسان يعبر عما يخالج نفسه، ومن خلال ذكره (بيان اللسان) ندرك مدى دقة الجاحظ في استعمال مفرداته؛ إذ لم يعبر بكلمة (اللغة) على اعتبار أن اللغة منطوقة ومكتوبة، يضاف إلى أن البيان أعم من اللغة، وتأتي اللغة نظاماً بيانياً وسيطاً في أنظمة بيانية متعددة، يضاف إلى ذلك أن اشتراطات الجاحظ للغة الإنسانية تتعدى قضية التعبير بالصوت للدلالة على معنى من المعاني، وأن التعبير بالصوت كنظام بياني دلالي يتشارك فيه الإنسان والحيوان، وأنه لا فرق بينها من زاوية أنها آلات بيانية مشتركة في الجانب الصوتي، وأيضا فهي تدل على معنى لأنها مختلفة باختلاف الحاجة، وأن ما يميز النظام البياني الصوتي الإنساني هو اعتبارات أخرى خارج النظام، تمس مستخدمي النظام، وفي حالة فقدها يفقد النظام البياني صلاحيته لأن يكون لغة جماعية إنسانية.

وقد عرض الجاحظ البيان باللفظ باعتباره آلة يتمكن الإنسان خلالها من التعبير عن حوائجه، ولا يقصر استعمال الصوت بوصفه حاملاً للقيمة الدلالية على الإنسان فقط، وإنما اعتبره مشتركاً بين الإنسان والحيوان؛ حيث نجده في أكثر من موضع يؤكد أن للحيوانات بياناً عن حاجتها، وأن لها منطقاً تتفاهم به، والفرق بينها وبين الإنسان أن اعتبار الإنسان صاحب منطق يطلق عليه على الحقيقة؛ أما الحيوان فعلى التشبيه بالإنسان[35]. ويطلق اسم الإنسان الفصيح الحسّاس في مقابلة الإنسان حيوان ناطق. كما يعتبر النظام الصوتي البياني كآلة بيانية قاصرة في إيصال بعض المعاني الخاصة، ولابد لها من الإشارة باليد، أو بطرف العين، أو الحاجب وغيرها من الإشارات المرئية؛ حتى يتمكن المتكلم من إيصال معنى خاص، أطلق عليه اسم خاص الخاص[36].

[34] البارع/ مصدر سابق/ ج1. ص54.

[35] ينظر: المصدر السابق/ ج7. ص21.

[36] ينظر المصدر السابق/ ج1. ص55.

النظام الكتابي (الخط):

كثيراً ما نقرن قضية اللغة بالتعبير بالصوت، ولا يكاد ينظر إلى النظام الكتابي إلا على أنه نظام تسجيلي للصوت المنطوق، وتقتصر مهمته على حفظ الصوت المنطوق من التلاشي والعدم، في حين نجد الجاحظ يعرض قضية اللغة الإنسانية وسط عرضه للأنظمة البيانية. ذكر الجاحظ الخط بوصفه آلة بيانية وعدّه من أعظم المرافق والنعم، فقال: "ولولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة والحكم المحفوظة التي تحصن الحساب وغير الحساب لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان[37]"، إذ يعتبر الجاحظ (الخط) حافظاً وخازناً للمعرفة الإنسانية، وهو هنا لا يتحدث عن نظام كتابي بعينه، ولا يبحث في خصائص نظام دون آخر، وإنما ينظر إليه من كونه نظاماً بيانياً إنسانياً، ويقارنه مع غيره من الأنظمة البيانية، ويعقد مقارنة بين منافع اللسان (العضو)، ومنافع اليد بوصفها الأداة التي يخط بها الإنسان، ويعتبر منافع اللسان مثل منافع اليد في الحضرة، بمعنى أن فعل اللسان الصوتي الآني يقابل أفعالاً عديدة تقوم بها اليد، ويحتاج الإنسان إلى منافعها الآنية "فاللسان الآن إنما هو في منافع اليد والمرافق التي فيها الحاجات التي تبلغها[38]"، ويمثل على ذلك بالمنفعة الحاصلة من استعمال اليد في الإشارة، وفي تقويم القلم، وفي الرسم، وفي الصناعات، وفي العقد، وفي الدفع عن النفس، وغيرها من المنافع والحاجات التي تسدها، والخدمات التي تقدمها، ويعتبر انتفاع الإنسان من النظام الكتابي يفوق غيره من المنافع؛ لأن الفائدة التي يقدمها تكمن في اجتيازه حدود الزمان والمكان، وفائدته تكون في غيبة كاتبه، نظام مكتف بنفسه، لا يحتاج إلى ما عند غيره من الأنظمة، فهو يسجل الحضور بالغياب، ويعتبر حضور الكتاب رغم غياب مؤلفه من أعظم، وأنفع الفوائد التي يجنيها الإنسان من ثمرة النظام البياني الكتابي، ولهذا اعتبره قادراً على تخليد الإنسان.

---

[37] المصدر السابق/ ج1. ص53.

[38] البارع/ مصدر سابق/ ج1. ص54.

النظام الإشاري (الإشارة):

التعبير بالإشارة وهي الحركة التي يقوم بها الإنسان للدلالة على معنى من المعاني، اعتبرها الجاحظ آلة من آلات البيان التي يمتلكها الإنسان، ويستطيع من خلالها التعبير عن المعاني، "فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب وكسر الأجفان ولي الشفاه وتحريك الأعناق وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر ثم ينقطع عملها ويدرس أثرها ويموت ذكرها[39]"، وهي نمط من أنماط التواصل الإنساني، وتختلف الإشارات الدالة على المعاني بحسب ثقافات الشعوب وبُناها الثقافية، ويكثر استعمال العلامات الإشارية في المجتمعات الحديثة كالأنظمة الإشارية المرورية التي تحكم عملية السير وتنظمها، ويتوقف مصير وسلامة الكثير من المستعملين لهذه الأنظمة على مدى الالتزام والتقيد بها، وكذلك العلامات الدالة التي يضعها مسؤولو الأمن في الشواطيء البحرية مثل الراية الحمراء، التي تعني حظر السباحة، وغيرها من الأنظمة البيانية الإشارية التي يحتاج إليها المجتمع لتحقيق التواصل الجماعي بين أفراده.

العقد (العد بالأصابع):

وهو نوع من الأنظمة البيانية كان يستعمله العرب كنظام عددي حسابي باستعمال شكل الأصابع كرموز للدلالة على الأعداد، وهذا النظام يغني عن التلفظ بالعدد، وقد كانوا يستعملونه في الأسواق عند المساومات في البيع والشراء، كنمط من أنماط التفاهم بقصد سرية الاتفاق بين البائع والمشتري[40]، واعتبره الجاحظ من بين الأدوات البيانية التي يستخدمها الإنسان في حياته، وهي نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، "والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى

[39] المصدر السابق/ ج1. ص54.

[40] ينظر: عبد السلام محمد هارون/ تُحَاشة النوادر/ دار الطلائع للنشر/ القاهرة مصر/ ط. الثانية/ ص136. كما ينظر: د.عبد السلام المسدي/ ما وراء اللغة/ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر بتونس/ 1994م/ ص74.

الحساب في الآخرة. وفي عدم اللفظ، وفساد الخط، والجهل بالعقد فساد جل النِّعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواماً، ومصلحة ونظاماً[41]"، كما ذكر الحواس التي يدرك بها نظام العقد: "واشرك الناظر واللامس في معرفة العقد إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس[42]" ويوضح أفضلية إدراكه بحاسة البصر، وفي هذا ما يدل على أن الإنسان الأصم الأبكم يمكنه أن يتواصل مع المجتمع العربي آنذاك، ويتمكن من ممارسة البيع والشراء عن طريق نظام العقد، وبذلك يمكنه تحقيق التواصل، وحتى المكفوف يمكنه التواصل عبر هذا النظام البياني من خلال حاسة اللمس، مما يدل على أن هذه الأنظمة البيانية المختلفة كانت تحقق التواصل الاجتماعي مع طبقات المجتمع المختلفة، ولا يشعر فيها الإنسان العاجز الذي فقد إحدى حواسه بنوع من الإقصاء نتيجة فقده لحاسة من الحواس.

النصبة (موضوع الجسم):

الأجسام الخرس -أياً كانت- بيانها عن طريق تمكينها للدليل المستدل (العاقل) إلى معرفة ما اسْتُخْزِن فيها من البرهان، وما حُشِيَتْ به من الدلالة، معربةً بنصبتها عن صحة الشهادة على وجود الله[43]، ويُدلّل بأقوال الحُكماء، وبأشعار العرب، وبقصصهم المأثورة على وعيِ العربِ، وفهمهم لنفس المعنى، وإن لم يعبروا عن ذاك المعنى مباشرة، طالما أنهم فهموا اعتبار الأرض بسكوتها عما فوقها، مجيبةً سائِلها فيقول: "وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه (...) وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سل الأرض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه[44]".

[41] عمرو بن بحر الجاحظ/ البيان والتبيين/ مصدر سابق/ ج1. ص80.
[42] البارع/ مصدر سابق/ ج1. ص52.
[43] ينظر: البارع/ مصدر سابق/ ج1. ص46.
[44] المصدر السابق/ ج1 ص46.

وبناءً على ذلك فإن بيان النصبة يأتي بمثابة الجانب المدرك، أو القابل للإدراك من المتاح الدلالي في هذا الكون باعتبار أن الإنسان محدود القوى والإدراك، ولا يمكن أن يقدر بعلمه على علم كل ما يعلمه الله سبحانه وتعالى، كما أنه يأتي على درجات، أو هو متفاوت بين الإنسان والحيوان، باعتبار تفوّق الإنسان على جميع الأجناس الحيوانية في القدرة على عقل الأشياء، وبالاستطاعة تمكّن الإنسان من التدليل، والاستدلال بمعنى صنع أو إنشاء العلامات كفعل قصدي إرادي يتعدى، ويفوق الطبيعة أو الفطرة الحيوانية، ويقابل هذه القدرة على الفعل البياني الإنساني خاصية التمكين التي جعلها الله سبحانه وتعالى في كل الموجودات في هذا الكون "وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه[45]"، وبذلك يكون مفهوم البيان مزدوج المعنى في هذه النقطة، كأشبه ما يكون بالشحنة السالبة والشحنة الموجبة التي تنبني عليها الدائرة الكهربائية؛ إذ يأتي بيان الدليل الذي لا يستدل عن طريق خاصية التمكين المقابلة لخاصية الاستطاعة عند الإنسان الفصيح الحساس، كما يسميه الجاحظ "فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال وسموا ذلك بيانا واجتمع للإنسان بأن كان دليلا مستدلا ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسموا ذلك بياناً[46]" حيث تتشارك جميع الأجناس الحيوانية عدا الإنسان مع جميع الموجودات في الدلالة، وفي عدم القدرة على الفعل الاستدلالي هذه المشاركة الدلالية تتحول من خلال خاصية التمكين إلى فعل بياني، وهي جزء لا يتجزأ من مفهوم البيان عند الجاحظ، أو هي الأس الأسيس الذي ينبني عليه الفعل البياني بوصفه هبة ربانية حبا الله بها الإنسان، وبذلك نصل إلى أن بيان النصبة عند الجاحظ يقوم على هذه الثنائية، وأنه فعل إنساني ناتج عن شيئين هما:

[45] المصدر السابق/ ج1. ص46.

[46] المصدر السابق/ ج1. ص46.

- التمكين عند كل الأصناف الدلالية الموجودة في هذا الكون المكون من جماد ونامٍ.
- الاستطاعة أو القدرة على ممارسة الفعل الاستدلالي التي انفرد بها الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرى.

مستخلص:

تبين فيما سبق خطأ المحقِّق في النص المحقَّق بالحذف، وهذا شكل من أشكال الخطأ الذي قد يقع فيه المحقِّق؛ وذلك بأن يعتقد أن هذه العبارة زائدة, وينبغي حذفها، كالذي حدث لعبارة "وسموا ذلك بياناً" التي رأى المحقق أنها مكررة وأنها عبارة إضافية لا معنى لها. وغاب بذلك المعنى الأول للبيان، وهو مشاركة كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، وبناء على هذا التحويل الدلالي عرض الجاحظ قضية البيان باعتباره قدرة ممنوحة، أو موهوبة للإنسان يستطيع بواسطتها تشاعر حاجاته بعد إدراكها وعقلها، وتمكنه من التعبير عما يخالج صدره بمجموعة من الأدوات البيانية، وهي (الصوت والخط والإشارة والعقد والنصبة) وهذه الأدوات البيانية تتقاطع مع الأصناف الدلالية باشتراكهما في الدلالة على المعاني. وتأتي اللغة الإنسانية من خلال نوعين بيانيين هما الصوت والخط، وأشرك الإنسان والحيوان في التعبير عن الحاجات من خلال الصوت، ووفق هذا التسلسل المنطقي في رصد الظواهر، وضبطها تكون اللغة الإنسانية بمثابة الوسيط الدلالي بين مجموع هائل من الدلالات المنظورة، والغائرة في توالد دائم ومستمر.

يضاف إلى ذلك كثرة العناوين المضافة على المتن، الأمر الذي أخرج النصوص المنقولة عن سياقها، وقطع تواصل الأفكار المعروضة في الكتاب. وقد ناقش الجاحظ موضوع البيان وشرح مفهومه، وذكر أقسامه وآلاته بإسهاب طويل يفوق الخمسين صفحة، تخلَّله ما يفوق

خمسة وعشرين عنواناً مضافة بين سطور النص، وهذا شكل آخر من أشكال أخطاء المحقّق في النص، وهو الخطأ بالزيادة، وقصد منها المحقّق مساعدة القارئ في الوصول إلى المعلومة المرادة من الكتاب؛ لكنها ساهمت بشكل مباشر في تناقض الأفكار والآراء الواردة في الكتاب، وتَعْمِيَة القراءة.

ليس المستغرب مما هو موجود في الكتاب من تناسق رؤية متكاملة عن الكون والبيان والحيوان[47]؛ بقدر ما مُستغرب من سوء ظن القارئ بالنص المقروء، واختصار وضعه في بضع جمل، تُسَهِّل على الطالب أو المتلقي بشكل عام اختصارَ المعرفة باقتباس مجموعة من الأحكام الجاهزة توارثها الدارسون والبحّاث على امتداد عقود من الزمن حتى أنها صارت علامة مسجّلة على تحريف النصوص، وسوء الفهم. وتبقى إعادة القراءة مطلباً ملحًّا وحاجة معرفية يتطلبها البحث العلمي، وذلك بإعادة النظر في النصوص المنتخبة والأفكار المصنوعة حولها.

[47] سبق نشر دراسة في العدد السابق من هذه المجلة بعنوان: الترجمة بين الشعر والكتابة، تناولت تضارُب الآراء المنسوبة للجاحظ حول الترجمة والشعر والكتابة الناتج عن تقطيع النص بالعناوين المضافة، ولا زالت قضايا أخرى ذات صلة بالموضوع قيد البحث والدراسة.

المراجع:

- د. نور الهدى لوشن/ علم الدلالة/ منشورات جامعة بنغازي ليبيا/ ط. الأولى/ 1995م.
- منذر عياشي/ الكتابة الثانية وفاتحة المتعة/ المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء = بيروت/ ط. الأولى/ 1998م.
- بول فابر = كريستيان بايلون/ مدخل إلى الألسنية/ ترجمة: طلال وهبة/ المركز الثقافي العربي/ لبنان .. المغرب/ ط. الأولى/ 1992م.
- أحمد الكراعين/ علم الدلالة/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر/ بيروت لبنان/ ط. الأولى/ 1993م.
- فايز الداية/ علم الدلالة العربي/ دار الفكر. دمشق سوريا/ ط. الأولى.
- عبد الغفار حامد هلال/ علم اللغة بين القديم والحديث/ ط. الثانية 1989م.
- المناحي الفلسفية عند الجاحظ/ دار ومكتبة الهلال/ بيروت لبنان/ ط. الأولى/ 1994م.
- عمرو بن بحر الجاحظ/ كتاب الحيوان/ تحقيق: عبد السلام محمد هارون/ مكتبة الخانجي مصر/ ط. الثانية/ 1965م / ج1.
- عمرو بن بحر الجاحظ/ البارع في الأدب والجامع في حكم العرب المعروف بكتاب الحيوان/ دار المعارف للطباعة والنشر/ سوسة تونس/ 1993م/ ج1.
- مجمع اللغة العربية/ المعجم الوسيط/ ط. الثالثة/ ج1. مادة (حكم).
- بيير جيرو/ علم الدلالة/ ترجمة: منذر عياشي/ دار طلاس دمشق سوريا/ 1992م.
- عمرو بن بحر الجاحظ/ كتاب الحيوان/ تحقيق: محمد باسل عيون السود/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان/ ط. الأولى سنة 1998م / ج1.
-عمرو بن بحر الجاحظ (ت:255هـ)/ البيان والتبيين/ تحقيق عبد السلام هارون/ مكتبة الخانجي/ مصر/ ط. الخامسة/ السنة 1985م.
- عبد السلام محمد هارون/ كُناشة النوادر/ دار الطلائع للنشر/ القاهرة مصر/ ط. الثانية.
- د. عبد السلام المسدي/ ما وراء اللغة/ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر بتونس/ 1994م.